سلسلة
اقرأ

# العلماني والفقيه

الدكتور محمد حبش

# العلماني والفقيه

د. محمد حبش

**لكي يبقى الإسلام حياً علينا أن نأخذ من تراث الآباء الجذوة وليس الرماد**

## تمهيد

في المؤتمر السادس عشر للتقريب بين المذاهب الإسلامية في طهران قبل سنوات، طرحتُ مسألة الحوار الفقهي العلماني على بساط البحث، وطالبت بفتح صفحة جديدة في اللقاء بين العلمانيين والفقهاء، حيث ضم المؤتمر أكبر حشد من العمائم في المؤتمرات الفقهية، واخترت هناك أن أنقل المسألة من محض حوار بين الفقهاء إلى حوار بين الفقه وبين الاتجاه العلماني الحاضر في الساحة الإسلامية رفيداً ومشاركاً، في محاولة للكشف عن مظان اللقاء والفراق بين التيارين الأكبر في العالم الإسلامي.

وفي تحفظ ضروري فإن العلمانية التي اختارت الإلحاد عقيدة، هي تيار غير مقصود بهذه المقاربة أصلاً، وإنما نتحدث هنا عن العلمانية الذي تتبنى الصلح بين الإيمان في أصوله الكبرى وبين العقل، ولو كان ذلك على حساب كثير من الموروث الثقافي وإن اكتسب طابعاً ثيولوجياً، وهؤلاء من وجهة نظري يشكلون معظم العلمانيين في منطقتنا.

وهنا أختار التعبير عن المسألة بأنها نزاع فقهي علماني وليست نزاعاً إسلامياً علمانياً ، والهدف واضح هنا وهو نقل الحوار برمته إلى الدائرة الداخلية، تأكيداً على حق الفريقين في الانتماء إلى الشريعة الخاتمة المظللة بقول الله تعالى: ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً.

وقد طبعت ظاهرة النزاع بين الفقيه والعلماني بطابعها تلك العلاقات المتوترة أصلاً والتي كانت ترسم إلى حد قريب حدوداً دموية بين التيارات القائمة في الساحة العربية، وللأسف تم تربص الطرفين في مواقع متباعدة على أساس التناقض الكلي بين المناهج والغايات، الأمر الذي أسهم في تكريس صورة لا دينية تطبع الاتجاه العلماني، وصورة لا عقلانية تطبع الاتجاه الإسلامي، وبدا كما لو أننا على أعتاب ثورة ثقافية أشبه بالثورات الأوربية الإصلاحية على الكنيسة في الغرب.

هذه الدراسة محاولة للنفاذ إلى جذر المشكلة وقراءة المسالة وفق المقاربة التاريخية لأزمة الفكر الإسلامي، ورسم الموقع المختار للاتجاه العلماني في الوسط التراثي، وبيان أن

التفكير العلماني ليس طارئاً في التاريخ الإسلامي، والتأكيد على أن إرهاصاته الأولى كانت على يد فقهاء كبار كانوا يدركون أكثر من سواهم مبدأ تغير الأحكام بتغير الأزمان.

إن قراءة سريعة للمشهد الثقافي في العالم الإسلامي اليوم تجعلك تشعر بالمرارة حيث يتنامى الخطاب الخوارجي (لا حكم إلا لله) على حساب تيار الفقهاء الذي يلتمس غايات الأحكام ومقاصدها بدل الوقوف على ظواهرها، ويقرر مبدأ حيث ما كانت المصلحة فثم شرع الله، ويتفهم قاعدة تغير الأحكام بتغير الأزمان، ويعتمد أدوات كثيرة للاجتهاد إلى جانب الكتاب والسنة.

إن الخلاف بين الفقهاء والظاهرية، أو بين العلمانية والأصولية وفق التعبير المعاصر، ليس حدثاً تاريخياً قاصراً على فترة محددة، بل إنه في الحقيقة أكبر أشكال الخلاف التي لا تزال تعصف بالأمة إلى اليوم، وتحول دون تحقيق وحدتها أو تعاونها على الأقل، أو حتى إحسان الظن بين أبنائها على أقل تقدير، ولا أشك أن من أهم أولويات الفكر الإسلامي المعاصر إنما هو في إعادة قراءة العلماني والفقيه على قاعدة الاحترام المتبادل والبحث عن المشترك في إطار الأخوة الإيمانية وقول الله تعالى: ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً.

## قراءة تاريخية

ظل الحديث عن حوار فقهي علماني غير ممكن من الناحية العملية لسنين طويلة، وكان الحديث عن هذه الحوارات يقتصر عند حدود المجاملة، بل إنه لم يبلغها في أحيان كثيرة، وكان فتح هذا الملف عادة يقابل بقدر غير قليل من الريبة والظنون على أساس أن الاتجاهين مختلفان في الجذور، ومن المستحيل توفر أي مشترك كاف لهدم جدار الوهم بين الاتجاهين.

ولكن العلماني والفقيه ظاهرة نعرفها تماماً في التاريخ الإسلامي، وهي بالضبط التي كانت تتجلى في مدرستي النص والرأي، وهي ظاهرة سبقت ظهور المذاهب الأربعة، وأوضح صورها الخلاف الشديد بين أبي حنيفة وسفيان الثوري، وهنا يمكنك أن ترصد المواقف المتباينة بين المدرستين من خلال ما كتبه الحافظ البغدادي في تاريخ بغداد حيث أفرد سبعين صفحة للحديث عن الخلاف العاصف بين أهل الرأي متمثلين في أبي حنيفة وأشياخه وتلامذته وبين أهل الحديث الذين كانوا يرون فيه خروجاً على النص وتجاوزاً للثوابت، ومن أوضح ذلك ما اتهمه به خصومه أنه كان ينقض عرى الإسلام عروة عروة، ويجب أن لا نتوقع من تيار النص أقل من هذا الموقف.

بل إن الحوار بين العلماني والفقيه لم يقتصر على جوانب فقهية تمس الحياة العامة بل تعدى ذلك إلى حد الحوار في اللاهوت نفسه ومن ذلك حوارات أبي حنيفة مع الدهرين، وكذلك الباقلاني والإسفراييني مع المخالفين.

ومن وجهة نظر الكاتب فقد كانت المعتزلة ظاهرة علمانية في تاريخ الإسلام، وكانت كتابات مقدميهم في كثير منها علمانية تعتمد مبدأ التأويل وتوجيه النص، وتحتفظ في الغالب باحترامه وإجلاله، وذلك ابتغاء تحقيق العدل والتوحيد، أو ما نسميه اليوم العدالة الاجتماعية.

ومن الظواهر العلمانية الواضحة في تاريخ الإسلام ظاهرة إخوان الصفا وخلان الوفا، ولولا الاستبداد السياسي لكان بالإمكان أن نقرأ أفكارهم وآراءهم في كتب الفقه والتفاسير المعتمدة.

بل إن شخصية العلماني والفقيه تجلت تاريخياً في ظاهرة ابن رشد الفقيه الفيلسوف الذي تحدث في وقت واحد عن قدم العالم وتفاصيل الفقه، وحفظ لنا التاريخ كتابيه الكبيرين: تهافت التهافت الذي كرسه للانتصار للفلسفة والفلاسفة وخاصة في موقفهم في مسألة قدم العالم وحاكمية النص، وكذلك كتابه فصل المقال في بيان ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، ومع ذلك فإن كتابه الشهير بداية المجتهد ونهاية المقتصد ظل مرجعاً فقهياً للمالكية بل إنه أصبح مرجعاً رئيساً للفقهاء من المذاهب الأربعة.

ولقراءة المسألة تاريخياً فيجب دراستها وفق منهجين: الأول منهج الفقهاء وهو يمثل قراءة علمية للنصوص تنفذ إلى مقاصدها ولا تقف عند حدود الألفاظ، ومنهج الظاهرية الذي كانت رسالته تنتهي عند حدود فهم ظاهر النص، وتأمر العقل بالتوقف عند حدود القراءة الظاهرية للنص وتمنعه من فهم المقاصد والبناء عليها.

والخلاف بين الفقهاء والظاهرية قديم في الثقافة الإسلامية، ويمكن إدراك بدايات هذا الخلاف منذ عهد النبوة، ثم إن مظاهر هذا الخلاف تحددت وتوضحت أيام التابعين، يوم كرّس النشاط العلمي في الإسلام عبر مدرستين اثنتين مدرسة الفقه (الرأي) ومدرسة الحديث، غير أن ملامح المدرستين أسساً ومناهج لم تستكمل إلا على يد عالم مهم جداً هو ابن حزم الأندلسي الذي صنف كتابه الشهير المحلى، والإحكام في أصول الأحكام، ومن خلالها رسم مدرسة محددة المعالم من الفقه الظاهري مقابل مدرسة سائر الفقهاء، الذين كانوا يعتمدون للشريعة مصادر أخرى غير التي يتوقف عندها الظاهرية، ومن المناقشات والردود بين ابن حزم وخصمائه توضحت لنا حدود المدرستين.

تأصلت مصادر الشريعة الإسلامية في مدرسة الرأي على يد الإمام الجليل أبي حنيفة الذي أطلق القرائح الفقهية للاستنباط على أساس مصادر أخرى بعد الكتاب والسنة وعد منها الإجماع والقياس والاستحسان والعرف ومذهب الصحابي، وأضاف الأمام مالك المصلحة المرسلة، ثم تتالى اجتهاد الفقهاء بعد ذلك في تقرير مصادر الشريعة المعتبرة.

ولكن في حين بلغت مصادر التشريع الإسلامي عشرة مصادر عند الفقهاء ، تقرر مرونة الشريعة وتجاوبها مع التغيرات في الزمان والمكان، فإن الظاهرية ظلوا يرفضون سائر هذه المصادر على أساس أن المصدر الوحيد للشريعة إنما هو الكتاب والسنة.

وهكذا فقد نشأ الفكر الظاهري منذ القرن الثالث الهجري رداً على مناهج الفقهاء في التجديد والاجتهاد وذلك على يد المفكر الإيراني داود بن علي الظاهري 201-271، فقد تقلب هذا المفكر بين العراق وإيران، وذلك بعد أن اكتملت مناهج الفقهاء الأربعة في الاستنباط الإمام أبو حنيفة 70-150هـ، والإمام مالك بن أنس 93-179هـ، والإمام الشافعي 150-204هـ، والإمام أحمد بن حنبل 164-241هـ.

وكان داود بن علي شديداً على الفقهاء، ولم يكف عن التصريح بأن هذه المذاهب الأربعة إنما هي بديل عن الدين الواحد الذي جاء به النبي ρ ، ولم يتورع عن القول بأن مذاهبهم في الاجتهاد إنما هي هدم للشريعة، وأن النجاء إنما هو في ترك هذه المصادر التشريعية جميعاً والوقوف عند الكتاب والسنة دون سواها من المصادر.

ففي حين أقر الفقهاء مبدأ تعدد مصادر التشريع فجعلوا منها الإجماع والقياس والاستحسان والاستصلاح وسد الذرائع والعرف وشرع من قبلنا ومذهب الصحابي فقد أنكر الظاهرية ذلك كله، وعدوا التشريع بواحد من هذه المصادر افتئاتاً على الله وعدواناً على الشريعة، وقد كتب داود بن علي كتاباً مبكراً في ذلك أسماه: إبطال القياس، وكانت عبارته التي تكررت في مواضع كثيرة ثم صارت كالعنوان لدراسته: (القياس منهج إبليس، وأول من قاس إبليس بقوله: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين)!..

والحق أن الظاهرية كتيار كانت أسبق من داود بن علي، فقد ظهر في مختلف مراحل التاريخ الإسلامي من أحجم عن التفكير، ورأى أن البعثة المحمدية حسمت المسائل جميعاً بالنصوص، وأنه لا مبرر لأحد أن يجتهد إذ النصوص المعصومة تكفلت ببيان كل شيء، ولن يظهر على هذه الأرض شيء إلا وفي الكتاب والسنة بيانه فصلاً جزماً، وكان هؤلاء يتمسكون دوماً بالآية الكريمة: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً} .

وإذا كان خلاف الظاهرية والفقهاء قد حدد مذاهب الأمة في الفقه، فإنه قد سبق للأمة أن انشطرت إلى مذهبين متناحرين فيما يتصل بالعقائد منذ أيام الصحابة وذلك إبان ظهور الخوارج، فقد اختارت الأمة مؤازرة العقل للنقل، وقدرته على تقييد النص وتخصيصه وتأويله والتوقف فيه، فيما صرح الخوارج بعبارتهم المشهورة (لا حكم إلا لله).

إن عبارة لا حكم إلا لله، كلمة لا تفتقر إلى المصداقية، وليس بوسع مؤمن ـ من أي مذهب كان ـ أن يتنكر لها، ولا شك أنها تختصر جهاد الأنبياء وعطاءهم، فلم يكن سعي الأنبياء والرسل منذ فجر عهد النبوة إلا لتقرير هذه الحقيقة، ولكن الإمام علياً رضي الله عنه رفض هذا الشعار الساذج وقال فيه: (كلمة حق يراد بها باطل).

لقد أدرك الإمام علي رضي الله عنه أن مقاصد الخوارج تتجه إلى تعطيل العقل والتماس سائر التوجيه في الحياة من ظاهر النصوص، وهو أمر غير ممكن، شرحه بقوله: أما إني أعلم أنه لا حكم إلا لله، ولكن هؤلاء يريدون لا إمرة إلا لله، أما إنه لا بد للناس من أمير، يجبي الخراج ويكتب الديوان وينكأ العدو!!

وبذلك فقد رسم الإمام علي ملامح الوعي بالحاجة إلى التجديد والاجتهاد في وجه التيار الظاهري الذي يرى التناقض بين العقل والشرع ضرورة، وأن المطلوب هو تحكيم الشرع نظراً لقصور معارفنا ووهن عقولنا.

إن السمة التي ميزت فكر الخوارج هي ارتكازهم على مبدأين اثنين:

الأول: تحكيم ظواهر النصوص، ولو أدى ذلك إلى نتائج متناقضة، أو معاندة لمقاصد الشريعة نفسها .

الثاني: رفض الآخر، إذ أسقطوا مقولة الاختلاف، وجزموا بتلازم الاختلاف في الرأي مع اختلاف الحق في ذاته، وقد أدى بهم ذلك إلى خيار تكفير الآخر، وهدر دمه، بل وعدم قبول توبته.

وهكذا فإن الخوارج هم الذين تبنوا الفكر الظاهري، وطبقوه عسكرياً، قبل أن ينحسر بعدئذ إلى فتاوى ورؤى يقدمها غلاة الفكر الظاهري.

ولو كان لنا أن نستعير مصطلحات عصرنا الحاضر، فنحن أمام منهج واحد، تجلى في جناحين: الأول: الجناح العسكري، وهو الخوارج، والثاني: الجناح السياسي: وهم دعاة الظاهرية ومنظِّرو الفكر الظاهري.

ويقوم الفكر الظاهري على أساس أن النصوص ـ من كتاب وسنة ـ قالت كلمتها في كل شيء، وأن دور العقل ينحصر فقط في فهم هذه النصوص وفق ظواهرها، وأن قياس ظاهر النص على أمر لم يتناوله النص مباشرة إنما هو عبث وافتئات على الله ورسوله، وأن في

النصوص من الإعجاز والبيان ما يقطع الحاجة إلى وجود أي مصدر تشريعي آخر، ويستدلون لهذا المعنى بظاهر بعض نصوص الكتاب والسنة:

{ما فرطنا في الكتاب من شيء} {ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء} {كتاب فصلت آياته ثم أحكمت من لدن حكيم خبير} {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً}

وكذلك قوله ρ : تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، وقوله ρ : تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً كتاب الله وسنتي.

غير أن الظاهرية لم تتبلور كمذهب شامل، يقول كلمته في المسائل كلها إلا على يد علي بن أحمد 384-456هـ، المعروف تاريخياً باسم ابن حزم الظاهري، فقد صنف ابن حزم كتابين كبيرين الأول: الإحكام في أصول الأحكام، وهو في تقرير أصول الظاهرية، والثاني: المحلى، وهو في تقرير فروع الفقه الظاهري.

ولا يملك المرء وهو يقلب صحائف هذين الكتابين إلا أن يأخذه الأسى والأسف، فأنت هنا أمام عملاق ولكنه سخر نفسه لقضية قزمة، فقد كان ابن حزم بالفعل من أقوى الناس عبارة، وأبلغهم خطاباً، ويبلغ اعتداده بفكره حداً يجعلك تجزم بأن ليس في قلب الرجل ذرة شك مما يعتقده، وقد تكررت أكثر من عشرين مرة عبارته لخصومه: (من قال ذلك فهو كافر مرتد حلال الدم والمال!!).

وأجد من الأمانة هنا أن أتحدث عن أفق آخر في فقه ابن حزم، فمع أنه اعتمد منهجاً شديد الصرامة لالتزام حكم النص مما انعكس تشدداً في جانب من فقهه، ولكنه في الوقت نفسه اتخذ موقفاً صارماً أيضاً في نبذ النص الضعيف سنداً أو دلالة فلم يقبل إعماله مطلقاً، ولم يقبل أن تتعدى دلالة النص في غير ظاهره، الأمر الذي فتح آفاق الاجتهاد في فضاء كبير مما سكت عنه النص، ووسع محل الاجتهاد بحيث تجاوز ما اعتبره الفقهاء أموراً محسومة.

إن حجج الظاهرية كانت حاضرة دوماً من ظاهر النص ولكن الأمة رفضت تاريخياً هذا الخيار وصارت إلى إحياء مقاصد النصوص وليس الوقوف عند ظواهرها ، وقد تجلى ذلك في اعتماد مصادر الشريعة الكثيرة كالقياس والاستحسان والمصالح المرسلة والعرف وسد

الذرائع وغيرها وهي كما لا يخفى مصادر زائدة على الخطاب الخارجي: لا حكم إلا لله، وهو ما كان يفهم منه تماماً عبارة : لا حكم إلا بالكتاب والسنة، ومن الجلي أن الأمة اختارت مذهب الفقهاء أيام المجد الحضاري وانحسر بذلك مذهب الظاهرية .

## ابن رشد فقيهاً فيلسوفاً

دعني أعترف لك من البداية بأنني تخرجت من كلية الشريعة بدمشق وأنا أعتقد أن ابن رشد الفقيه هو شخص آخر غير ابن رشد الفيلسوف، فقد كنا ندرس الرجلين (أو الرجل إياه) من خلال منبرين اثنين يتعذر الجمع بينهما على أنهما خطاب رجل واحد، فمن أين يمكن لخطاب الفلسفة المحلق نحو العقل الفعال والهيولى الأولى أن يلتزم القيود التقليدية المعروفة وفق منطق قف على ما وقف عليه الأولون فإنهم عن علم وقفوا، وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في اتباع من خلف، ولو كان خيراً ما سبقونا إليه، حيث تتناوشه سهام التكفير وبيانات التضليل بمجرد أن يفكر بمخالفة الفكر السائد، على الرغم مما قد يقدمه خطاب النقد هذا من ضياء ونور.

ولم أكن أتخيل كيف يستطيع رجل كتب ما كتبه ابن رشد أن يحافظ على منبره أو على اسمه بين الفقهاء، بحيث يحظى باحترام الأحرار من المفكرين وفي الوقت إياه يحظى ببقاء عمامته فوق رأسه أو على رأسه تحت عمامته في وقت كان القتل على الردة أهون من شربة الميّ؟؟ ولكن الرجل قدم في تجربة حياته بكل تأكيد أن التنوير قادر على النهوض من المحراب والتألق على المنبر، ولعلها في العمق روح الحضارة الإسلامية في الأندلس التي كانت صورة واضحة لتمازج البدوي مع الحضري، وإسباغ نعمة الجمال في الفردوس الأندلسي على بطحاء الفكر، وهو ما يمكنك أن تقرأه في التمايز الواضح بين الشرقي والغربي من خطاب فلاسفة القرن السادس الهجري.

فابن رشد الفقيه كان رجل منبر ومحراب وأصدر عدداً من الأعمال العلمية الفقهية لأصحاب الاختصاص اكتملت بكتابه: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، وهو أول كتاب منهجي يعتمد الفقه المقارن ويورد باحترام وتقدير حجة الرأي الآخر على الرغم من عدم رضاه عن خياره واعتراضه على حجته، وقد حدد فيما بعد منهجه الفكري بكتابه: مناهج الأدلة في علم الأصول.

وابن رشد الفيلسوف خاض غمار حرب طاحنة ضد التيار التقليدي في الإسلام، وواجه بشكل خاص الإمام الغزالي الذي كان يمثل الاتجاه المحافظ في الأمة في مرحلة بالغة الدقة والحذر، وأصل لرسالة وفاق بين العقل والدين وبالتالي كان يرفض منطق الدين المصادم للعقل، ويطالب برسالة واضحة للشريعة في بناء فلسفة متماسكة للعقل والإيمان.

بالتأكيد لم يكن ذلك بدعاً في شخصية ابن رشد، فسجل حياته الشخصية أيضاً طافح بالعجائب فهو الرجل الذي حظي بأعلى مكانة لدى الخلفاء الموحدين أبي يوسف وأبي يعقوب ولكنه كان أيضاً الخليفة الذي حظي بغضبهما وانتقامهما، وهو الرجل الذي فرضت كتبه على المدارس الفقهية ولكنه الرجل إياه الذي أحرقت كتبه فيما بعد في مهرجانات احتفالية، ودرس الفقهاء كتبه في الفقه وأحرقوا كتبه في الفلسفة، واعتبره الفقهاء هرطوقاً في العقيدة قائلاً بالتجسد والحلول على الطريقة النصرانية ولكن أساقفة باريس وأكسفورد وكانتربري في القرن الثالث عشر الميلادي حرموا بدورهم قراءة كتب ابن رشد وأحرقوها أمام عيون الجماهير، حتى على صعيد عمله الشخصي فقد كان الرجل أيضاً محيراً فقد اشتهر فيلسوفاً ثم عمل طبيباً للخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف، ومن ثم عمل قاضياً له؟؟

وأهم ما في مذهب ابن رشد من المسائل التي اتهم من أجلها بالزندقة ما يأتي: قدم العالم، وعلم الله وعنايته، وكلية النفس والعقل، والبعث. وعادة ما تتم الإشارة إلى مواقفه هذه في الدلالة على أنه يخالف الشريعة وبالتأكيد فإن هياج الدهماء وإحراقهم كتبه في صخب

احتفالي كان وراء ذلك، ولكن ابن رشد لم ينكر العقيدة وإنما فسرها على وجه جعلها تتمشى مع الفلسفة.
ففي مسألة قدم العالم لم ينكر ابن رشد أنه مخلوق، ولكنه جاء برأي في الخلق خالف فيه المتكلمين بعض المخالفة. فالخلق عنده لم يكن دفعة واحدة، أي مسبوقاً بالعدم، ولكنه خلق متجدد آناً بعد آن، به يدوم العالم ويتغير؛ وبمعنى آخر: هناك قوة خالقة تفعل باستمرار في هذا العالم وتحفظ عليه بقاءه وحركته. والأجرام السماوية على وجه خاص لا توجد إلا بالحركة، وهذه الحركة تأتيها من القوة المحركة التي تؤثر فيها منذ الأزل؛ فالعالم قديم ولكنه معلول لعلة خالقة ومحركة، والله وحده قديم لا علة له.

أما فيما يختص بعلم الله فإن ابن رشد يأخذ بذلك الأصل الموضوع الذي قالت به الفلاسفة من قبل وهو "أن المبدأ الأول لا يعقل إلا ذاته"، ولا بد أن يكون الأمر كذلك عند هؤلاء الفلاسفة، حتى يحتفظ المبدأ الأول بوحدانيته، لأنه إذا عقل كثرة الموجودات صار متكثراً في ذاته، وصار دليلاً على قدمها، وإذا دققنا النظر في هذا الأصل فإن الموجود الأول يجب ألا يعدو حدود ذاته لأنه لا يعقل غير ماهيته، ويترتب على هذا أن تصبح العناية أمراً مستحيلاً. وذلك هو المأزق الذي كان يجتهد المتكلمون أن يدفعوا الفلاسفة إليه، وهذه بالطبع هي رؤية المعتزلة الذين كانوا يصرون على طرو الصفات على الله ما خلا صفة الوجود، وذلك إمعاناً في التنزيه والتوحيد في معرض ردهم على الدهرية وليس في معرض محاباتهم لها.

ولكن أكثر ما يعنيني في ابن رشد هو أنه اكتمال لرسالة أستاذه وشيخه ابن طفيل ، الذي كان أول من قدم لوحة فنية مكتملة الأجزاء على مركب الأدب للتوفيق بين العقل والدين، من خلال الرائعة الخالدة حي بن يقظان، التي عالجت أمرين في غاية الأهمية كنا نقرؤهما بعمق في الفكر الاعتزالي وهما اتحاد رسالة العقل والدين، والإعلان عن رسالة العقل نبياً، كما هي في صلب تفسير عبد الجبار الهمداني لآية الإسراء وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً.

وما حرره ابن طفيل في رسالة حي بن يقظان من وفاق العقل والدين في حديقة الأدب والجمال، حققه ابن رشد على صخرة النقد الصارمة، ومنذ ذلك التاريخ فإن رائعة ابن طفيل ترجمت لأكثر من ثلاثين أدباً عالمياً وسخرت في خدمة أغراض مختلفة ولكنها ظلت تشير بأصبع مضيئة إلى التجربة الأولى التي قدمها ابن طفيل في خدمة الحقيقة والعقيدة.

ابن رشد وابن سبعين وابن عربي وابن الفارض والحلاج وابن حبش السهروردي أسماء كبيرة في سماء الفكر الإسلامي نتناولها اليوم بالدراسة والثناء والدراسات التأويلية المضنية، ونستدل من خلالها لما عرفته الحضارة الإسلامية من تنوع وغنى ولكن علينا في الوقت إياه أن نقول إن هؤلاء المجددين عاشوا كفاحهم ورسالتهم على وقع الأخطار المزلزلة ورأوا بأعينهم كيف كانت كتبهم تحرق باسم الرب، وكيف كان أتباعهم يطاردون ويشتتون وأفكارهم تعامل في حلقات الفقهاء معاملة السم الناقع، ولو عاشوا في زماننا لنالوا نصيبهم الوافي من الاتهام بالماسونية والصهيونية والخيانة والامبريالية وآخر ما يتوفر في قاموس الشتات العربي اليوم من لغة الإقصاء ولعنة الريب.

اليوم تخصص الشام حياً كاملاً من أحيائها للشيخ الأكبر محي الدين ين عربي، ويعده أهل الشام أبرك أحيائهم وأكثرها صلاحاً، وتقضى عند ضريحه الطاهر النذور والكفارات، ويدخل الفقهاء ضريحه باحترام وإكبار، مع أن كتب التاريخ الإسلامي طافحة بفتاوى الزندقة والتكفير التي نالها الرجل من كل حدب وصوب، وهو يقول: ولكل عصر واحد يسمو به وأنا لهذا العصر ذاك الواحد

من وجهة نظري فإن ابن رشد تكمن فرادته في أنه لم يشأ أن يمضي في القطيعة مع التيار التقليدي إلى الغاية، كما لم يشأ أن يعلن نفسه ناسكاً لاهوتياً زاهداً، بل أحب الحياة واقترب من السلطان وعمل له وأكل على موائده وأصاب وأخطأ ونجح وأخفق وجامل وتأول واستخدم أدوات السلطان الممكنة في نشر رسالته، وأخذ أجره من كف السلطان

طبيباً وقاضياً، وأصر أن يبقى بعمامته على منبره على الرغم من سماعه لفتاوى التفسيق والزندقة الصادرة بحقه وكان مؤمناً بيقين أن التنوير الحق هو ما يحضر من المنابر والمحاريب في تكامل بين العقل والروح والدولة والفرد وهو ما ترسمه أعمال الأئمة الأربعة المجددين، ابن سينا والفارابي في رسالة الفرد والدولة وابن طفيل وابن رشد في رسالة الروح والعقل الذين قدموا بتكاملهم الرباعي دورة الحضارة الإسلامية المتكاملة التي رسمت المنظومة الفكرية المتكاملة لقيام الأمة ونهضتها.

## ماليزيا: تجربة الفقهاء مع العلمانية

تشهد ماليزيا حالة من أهم حالات الصحوة الوطنية في العالم ، فهذا البلد الذي يعيش تقليدياً في أجواء آسيا الحقيقية، ويعتز بزهو بروح الشرق الآسرة، ويعيش فيه المسلمون والبوذيون على السواء استطاع أن يقدم نموذجاً حضاريا لافتاً للعالم وتمكن مهاتير محمد من إنجاز المعجزة الماليزية في العالم حين التحقت ماليزيا بجدارة بالدول الصناعية الكبرى في العالم وقفزت من خانة نمور آسيان إلى منصة أسود العالم الجديد، وكسبت احترام العالم في نجاحها الصناعي والتجار والتقني وهو نجاح لافت أثار إعجاب العالم.

ولكن نجاح ماليزيا لم يكن أبداً بسبب تنكرها لقيم الإسلام، لقد أنجز الماليزيون مشروعهم الحضاري وهم أكثر تمسكاً بقيم الإسلام العالية في الأرض، ومع أن البلد يشهد صحوة إسلامية واضحة ولكنه لم ينجرف صوب أي من التيارات المتطرفة، وظل خطابه معتدلاً واضحاً .

في الوقت الذي قامت فيه الحكومة الطالبانية بتفجير تماثيل بوذا في باميان على عين العالم فإن ماليزيا كانت تقوم بترميم أكبر تمثال لبوذا في العالم، لقد زرت ذلك التمثال

العجيب وهو بارتفاع مبنى من اثني عشر طابقاً سيكلف ترميمه ملايين الدولارات، ولم يطالب الفقهاء الماليزيون بتدمير التمثال أو قصفه أو تفجيره، ورسم الماليزيون صورة واضحة للتعايش السلمي والأهلي بين أبناء الأمة الواحدة على الرغم من التناقض الصارخ بين البوذية والإسلام وهو تناقض يعكس ببساطة التناقض بين دين التوحيد وبين ديانة وثنية!!

السياحة بكل أدواتها تتوفر في الشارع الماليزي ويتكسب بها البوذيون بشكل خاص من أبناء ماليزيا، وهي تشهد ازدهاراً غير عادي في ظل دولة إسلامية ناجحة لا تزال ترفع في قبة برلمانها سورة الرحمن باللغة العربية، في إشارة إلى اعتزاز ماليزيا بالقيم الإسلامية وإن تكن في وعيها الفقهي قد تجاوزت كثيراً من الشروط المتشددة.

كان أول قرار اتخذه عبد الله بدوي حين تم له النجاح في الانتخابات الماليزية أنه ذهب من فوره رفقة أسرته إلى مكة المكرمة لأداء فريضة العمرة، وكانت الكاميرات تلاحقه هناك بالمناشف البيضاء حول الكعبة المشرفة، وهو يصل آمال بلاده بأشواق روحه، ويعود إلى الشرق البعيد محملاً بأذواق الحرم الشريف ليستأنف مشواره يفي نهضة بلاده.

لقد تمكن هذا البلد الآسيوي من إنجاز كافة الشروط الحضارية لتقدم بلاده من دون أن يتنكر لقيم الإسلام أو يتخلى عن ثوابته، فلماذا يشترط علينا بعض العلمانيين العرب أن نتنكر لقيم الإسلام قبل أن نمسك خيط الطريق نحو النهضة لنحظى بموقع بين الأمم؟؟

## تركيا: جدل العلماني والفقيه

في لقائي الوحيد مع السيد أردوغان الذي نظمه لي العزيز خالد تشيفك سفير تركيا في دمشق وذلك في مقر إقامته بميريديان دمشق كنت في الواقع بصحبة أخي الشهيد الشيخ معشوق الخزنوي، الذي يتقن نوعاً ما اللغة التركية، وكان اللقاء في الواقع محاولة استشراف لمشروع ذلك الرجل الطويل القامة ، الممتلئ بالثقة والأمل، ومع أنه يقود مشروعاً حضارياً حقيقياً ولكنه لا يتحدث إلا التركية، وكانت لديه الرغبة نفسها للتعرف على تجربة خطاب إسلامي ناشىء في سوريا يهتم أيضاً ببناء علاقات صحيحة بين الإسلام والعلمانية.

لم يتمكن الأتراك من ترشيد علمانيتهم إلا بعد أن دفعوا ثمناً غالياً، وحصدوا سلسلة انقلابات صادمة، ولا زال في الذاكرة مشهد المحاولة الأولى التي قام بها عدنان مندريس بهدف تصحيح الهوية التاريخية لتركيا ولكن المحاولة انتهت بالإخفاق حين قام العسكر بسحق الديمقراطية الوليدة وتسليم مندريس إلى مصيره الدموي، ومني المشروع الإسلامي بالإخفاق المرير، وبدا كما لو أن أي مساس بالقيم الأتاتوركية لن يأتي بأي أمل أو نور، وأحيل أربكان إلى المحاكمة ومنع من العمل السياسي، وجن جنون العلمانية الهائجة حين دخلت مروة قاوقجي إلى البرلمان بحجابها، ولم يستح العسكر من القيام بمنعها من دخول البرلمان بل ذهبوا إلى حد نزع الجنسية التركية عنها، في سابقة مرعبة، وكانت خلاصة

جريمتها أنها دخلت البرلمان بحجابها وهي معتصمة بملايين الأتراك الذين انتخبوها لتكون صوتاً لهم في البرلمان.

قد تكون شجون النجاح الأردوغاني تركية خالصة ولكن علينا هنا أن نقرا إطلالتها على العالم الإسلامي، وأثرها في المحيط العربي لتركيا.

أردوغان كما هو معلوم اليوم يحظى بشعبية كاسحة في العالم الإسلامي والحركات الإسلامية المستنيرة في العالم الإسلامي تنظر إليه على أنه النموذج الذي حقق نجاحاً إسلامياً حقيقيا، وأحيا الآمال برسالة الإسلام المستنير في بناء الحياة والجتمع.

ولكن السؤال الذي لا يمكن تأجيله: ما هي الحركة التي يقودها أردوغان؟؟ وهل هي كما يتبادر للخاطر مجموعة من الناسكين والدراويش المولولوية الذين قرروا أن يتحولوا ذات يوم إلى العمل السياسي؟

لم ينطلق أردوغان من رحم الحركة الصوفية أو السلفية، ولم يكن من أهدافه الانتصار لفكر فئوي أو مذهبي، ولم يمض الوقت في الجدل البيزنطي حول مدلولات عبارة العلمانية، والتوافق والتفارق بين الأصولية والعلمانية، ومؤامرات الماسونية واللوتري والليونز وغيرها من المؤسسات الصهيونية العميلة وإثبات أنها هي التي أنتجت الفكر العلماني، ولم يكرس جحافل الباحثين لإصدار الدراسات التي تثبت الجذور الصهيونية والاستعمارية للفكر العلماني، وعلاقته بالشيطان، بل اكتفى بأن طرح نفسه مشروع عدالة وتنمية للجميع، مهمته الإصلاح في الأرض، تاركاً أمر الثواب والعقاب ليوم السماء، وهو في ذلك لا يطبق قاعدة علمانية أطلقها فولتير في وجه البابا الدين لله والوطن للجميع، بل هي قاعدة وجدها في تعاليم السيد المسيح أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله، ووجدها في نص القرآن الكريم: قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، وقرأها بصورة أوضح في العبارة الذهبية الخالدة للرسول الشجاع: أنت أعلم بأمور دنياكم.

قلت له أيها المعلم، إن نجاحك أفرح قلوب المؤمنين في العالم الإسلامي، ولكن ماذا عن العلمانيين في تركيا؟ بدا الرجل غير مبتهج لسؤال كهذا، بادر بالإجابة ماذا؟ هل قلت العلمانيين؟ لقد عملنا للمجتمع التركي برمته، ولم يكن لدينا أي ميزات للناسكين على سواهم، لقد تركنا أمر الحساب للخلاق، وقمنا بخدمة الجميع، لقد كنا نرى في الجميع حاجة حقيقية للأمة ، وقال لي ألم تقرأ قول الله للنبي الكريم: فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر؟؟

اردوغان يتعهد علناً بحماية النظام العلماني ويناضل من اجله، ويتحدث طويلاً عن مزاياه وهو في هذا الجانب يفارق أستاذه أربكان الذي كان يتحدث عن حماية النظام العلماني، ولكن يتسرب من هنا وهناك أن هذا الموقف هو نتيجة ضغوط نواجهها، وهي مرحلة لا بد منها، وإننا لنبش في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم، وهنا فقد اعتذر الرجل مراراً بمنطق إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، أو من باب إلا أن تتقوا منهم تقية، وهي لون من الحكمة تتسق مع السياسة الشرعية عندما يتعين على المرء حماية الحركة الوليدة إلى أن تبلغ الفطام.

أردوغان لم ينهج ذلك السلوك وراح يبحث حقيقة عن مزايا النظام العلماني على قاعدة نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم.
من وجهة نظر أردوغان فما بين النظام العلماني وقواعد الفقه الإسلامي المستنير مسائل محددة يمكن التعاطي معها بحكمة، وربما تأجيلها إذ اقتضت الضرورة، وقد استطاع بالمنطق العلماني نفسه أن يتحدث عن انحراف العلمانية عن رسالتها حين واجهت الحجاب، وفرضت نمطاً من اللباس يتناقض مع القيم العلمانية، وها هو يمضي بامرأته المحجبة إلى قصر يلدز أمام كاميرات تركيا أتاتورك العلمانية.

إن لقب الإسلام المستنير الذي لازم العدالة والتنمية منذ سطوع نجمها في تركيا لا ينبغي أن يشتمل على أي مصادرة للحقيقة المعروفة وهي أن الإسلام كله مستنير وهي رسالة نور

ولكن تطبيقات المسلمين هي التي يمكن أن تنعت بالنور والظلام، وليس الإسلام نفسه، إذ هو في العمق رسالة هدى ونور وخير.

الإسلام المستنير لأن أردوغان أطلق قراءة أخرى للإسلام تستند إلى رسالته في البناء والتنمية، وفق ما قدمته قراءة النبي الكريم لمجتمع المدينة الذي كان يجتهد في البناء والتنمية،

قرأ أردوغان المشهد كاملاً، فتركيا بلد الستين مليون مسلم لا يجوز أن تبقى خارج فلكها الإسلامي إذ هو تاريخها وحاضرها ومستقبلها.

الإسلام عند أردوغان صديق للأمم وليس قاهراً ومهيمناً على إراداتها، لم يعد بالإمكان أن نمضي بنفس المنطق الاستعلائي الذي كانت تمارسه الجيوش الانكشارية تجاه أوروبا الكافرة، لقد تقدم بخطاب جديد يستند إلى هوية إسلامية ولكنه يبحث في صخب أوروبا الهائمة عن رسالة المشترك الذي ينبغي أن يتعزز باللقاء بين الشعوب والأمم.

على الرغم من فوارق الإيديولوجيا والجغرافيا والتاريخ تمكن أردوغان أن يقول لأروبا: ثمة ما نشترك عليه في هذه القرية الكونية، وهكذا استطاع بجدارة أن يحصد موافقة شيوخ النادي الأوروبي من أجل انضمام تركيا إليه، وهو ما أنعش الآمال بالإخاء الإنساني، ووجه ضربة قاصمة لصقور الحرب الأممية وشياطين حروب الحضارات.

لم يخف أبداً هويته المسلمة التي تنتمي إلى إشراقات الروح ورغائب الجنة، إسلام يختلف اختلافاً جذرياً عن أمراء الظلام الذين يخرجون إلى الناس اليوم بأزياء العصور الوسطى وعقول ما قبل التاريخ ليتحدثوا عن الإسلام عدواً مفترضاً لكل منجز حضاري يرسخ الموت والقتل والدمار والثبور والخراب والهلاك لكل أحد، إسلام لا ينتمي إلى إلغاء رسالة العقل والحب والرضا والنور بل يسعى إلى الدخول في النادي الأوروبي بكل اقتدار وثقة وعزيمة، رغم حواجز الجغرافيا والديموغرافيا التي لا تنتهي

## رسول الله بأقلام علمانية

لست أدري لماذا تعلقت في طفولتي بكتاب عبد الرحمن الشرقاوي (محمد رسول الحرية) على الرغم من أن الرجل معروف بميوله اليسارية، ومع أنني لم أكن أعلم اليسار من اليمين آنذاك، ولكنني لا زلت أذكر الدمعة في عيني، وأنا أتنقل بين صحائف هذا الكتاب، من باب لباب، أقرأ كفاح النبي الكريم حين نجح وحين عاكسته الأقدار، وحين انتصر وحين انكسر، كما هو حال كل من يقود ثورة كفاح تتضرج بدماء الشهداء وتعذب فيها التضحيات، وكان عبد الرحمن يرسم لي البسمة عند ساعة النصر ويسكب لي الدمعة عند لحظة الإخفاق، الأمر الذي جعلني أنظر إليه كرائد فريد من رواد السيرة النبوية الكريمة.

وأذكر تماماً كيف كنت أسمع بعض أساتذتي يحذرونني من قراءة أعمال الشرقاوي حيث لم يكن يطرح النبي الكريم في ثوب نبوته، وكان يكتفي برسم ملامحه في ثوب بطولته، وكانوا يرون في ذلك ريبة لا تبرر، وهو أمر يعانيه اليوم كل من كتب في الإسلام بطريقة غير تقليدية إذ تتناوشه سهام النقد وبيانات التجريح والتشهير.

ومع أن الكاتب اليساري غير معني برسم ملامح الغيب التي كان الرسول الكريم يتلقى منها أصول رسالته، ولكنه استطاع أن يرسم الصورة كاملة من خلال طموح شاب آلى على نفسه أن يحمل الآمال الدافئة لعقيدة التوحيد من أجل قيام نهضة حقيقية في أمته الغارقة حتى الثمالة بأمراض الجاهلية.

بخلاف ما تعودته الناس من الأساطير التي تنسج عن رجال الغيب والناطقين باسم الرب، فإن النبي محمداً رسم لنفسه ملامح أخرى تتأكد فيها بشريته وضعفه الإنساني أكثر من أي شيء آخر، تقرأ ذلك مئات المرات في نصوص التنزيل: قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي، قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء، قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم!! الأمر الذي جعل يهود المدينة يقولون: كيف نتبع رجلاً لا يدري ما يُفعل به ولا بنا؟؟

إنه نبي شحاع بكل المقاييس، لقد وقف أمام الناس وهو يحدثهم عن حجم معرفته البشرية بأمانة: أيها الناس إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فأسمع منه فأقضي له بنحو ما أسمع فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما هي جمرة من النار فليأخذها أو ليدعها.

في موقف آخر أورد المحدثون أن النبي الكريم لما وصل المدينة رآهم يؤبرون النخل، وتأبير النخل شيء في غاية الغرابة إذ لا يشتمل على تلقيح مادي مفهوم، بل هو تعليق غصن صغير من شجرة على شجرة أخرى حيث يرسل الله الرياح لواقح فيصل بعض طلع النبات ببعض بحكمته وأمره فيكون في ذلك العافية والنشاط للثمرة وتورق بعد جدب وتزهر بعد قحط.

وصل النبي الكريم المدينة المنورة فرأى أهل المدينة يؤبرون النخل، لم يكن معنى التأبير واضحاً وتبادر إلى ذهن النبي الكريم أن الأمر لا يعدو أن يكون واحدة من الخرافات التي سادت في الجاهلية واشتملت على الأوهام وسرعان ما أنكرها فيهم وقال: ما أرى ذلك يغني عنها شيئاً؟؟

كانت القداسة التي تحيط بأذهانهم عن النبي الكريم تحول بينهم وبين استيضاح الأمر فبادروا إلى السمع والطاعة من دون حوار، وهم على يقين بأن ما دعاهم إليه النبي الكريم

أبرك وأفضل، ولكن مع ظهور الموسم لم يشاهد الناس شيئاً مما توقعوه وكانت المفاجأة أن الشجر لم يحمل إلا شيصاً، لا زهر وفيه ولا ثمر!!

في تلك اللحظة كان على النبي الكريم أن يخوض امتحاناً دقيقاً فكيف يمكنه أن يقول إنه أخبر الناس بأمر ظهر خطؤه؟ وأن توقعه لم يكن صائباً؟

كان في إمكانه أن يقول غير ذلك، وأن يدفع باتجاه حل غامض يربط فيه شح الأرض بإرادة سماوية علية، لا تحيط بها الأفهام ولا تدركها الأوهام، ولكنه مضى أمام الناس بكل شجاعة قائلاً : أيها الناس، إذا أمرتكم بالشيء من أمر دينكم فهو مني وأنا قلته، وإن أمرتكم بالشيء من أمر دنياكم فأنتم أعلم بأمور دنياكم!!

إنها تماماً إرادة مباشرة للرجل الذي ألقي على كاهله إعادة رسم خريطة العالم أن يقول للناس أنا بشر مثلكم

إنها قراءة قرأها إقبال من قبل، ونظمتها على شكل سؤال يطرحه حيران بن الأضعف في قصة الإيمان:

ما النبوات التي كانت لكم  غير أشواق وأذواق ونور
رقرقت شوقاً على أسماعكم  وجرت أنغامها فوق السطور
فلماذا ختمت أنوارها  رغم ما يشهده العالم هذا
ولماذا طويت أسرارها  ولماذا ولماذا ولماذا؟؟

وعلى عادة إقبال في شكوى وجواب شكوى،كان في جوابه:

مجدكم في الأرض لا ترسمه  أنفس تسكن في جوف المقابر
فخذوا أقداركم وانتبهوا  واصعدوا أنتم على تلك المنابر
إن مصباحي الذي أوقدته  نورك الباقي على مر العصور
إنما زيتك من يسرجه  ليس زيتي وأنا ابن القبور

إنها قراءة أخرى لنور النبوة لا تشبه في شيء تلك القراءة الأسطورية التي تختصر كفاح النبي الكريم وجهاده وجراحه في سلسلة من العجائب التي جادت بها قرائح المحبين، كان فيها يركب الهواء ويمشي على وجه الماء، ويسارع ربه في هواه، وتأتي لدعوته الأشجار ساجدة تمشي إليه على ساق بلا قدم، ويفوق جوده الدنيا وضرتها، وتشتمل علومه على علم اللوح والقلم.

بإمكانك أن تقرأ السيرة النبوية الكريمة كما سطرها أئمة كبار في تاريخ الإسلام الأول كأبان بن عثمان بن عفان ومغازي عروة بن الزبير والواقدي وابن سعد والبخاري ومسلم، وغيرهم من المحدثين والرواة حتى تصل إلى ما حرره ابن حجر في المواهب اللدنية ثم النبهاني في الأنوار المحمدية، وهو تراث عارم فيه الغث والسمين وفيه الأصيل والدخيل، ولكن ذلك كله لن يكون وافياً لأولئك الذين يريدون في حياته رمز كفاح إنساني تقتدي به الأمم.

إنني أرحب بكل ما أنجزوه في السيرة النبوية، ولكن أدعوكم لقراءة السيرة الكريمة مرة أخرى على منهج محمد عبده ومحمد إقبال وعبد الرحمن الشرقاوي وحسين هيكل وعباس محمود العقاد وروجيه غارودي ومراد هوفمان ومالك بن نبي ووحيد الدين خان وجودت سعيد.

إنه بكلمة واحدة: النبي الذي نقل العالم من ضباب الخوارق إلى ضياء السنن.

## العلماني والفقيه: مخاوف متبادلة

**لماذا تصرون على أن يرتدي هذا المؤتمر عمامة أزهرية!!**

هكذا كان اعتراض الفريق العلماني المشارك في مؤتمر الديمقراطيين العرب عقب الكلمة التي ألقيتها في مؤتمر الإصلاح والديمقراطية في قطر قبل شهور، وهو الاعتراض نفسه الذي واجهته في مؤتمر العلمانية في العالم العربي الذي عقدته دار بترا ودار أطلس بالتعاون مع المعهد الثقافي الدنمركي في دمشق.

هذه المخاوف نواجهها كلما حاولنا التحدث عن المشترك بين الديمقراطي والإسلامي وهو ما يثير حفيظة المتشددين من العلمانيين الذين لا زالوا يصرون على أن تكون العلمانية دين الديمقراطية ، ويمضون إلى حد إطلاق ما أسميه ثيوقراطيا الديمقراطية.

قدم مؤتمر قطر دليلاً واضحاً أن العلمانيين الذين يرتبطون تقليدياً بتمثال الحرية في نيويورك يختصرون كفاحهم العربي في وجوب القطيعة بين ما هو إسلامي وبين ما هو ديمقراطي، على أساس تناقض المرجعية في كل من الخيارين فالديمقراطية احتكام إلى الشعب والإسلام احتكام إلى الكهنوت!!

وهذه المخاوف هي بعينها ما سمعناه هنا في دمشق في مؤتمر العلمانية في العالم العربي حين تحدث الدكتور عزيز عظمة عن خطورة الردة على العلمانية التي يشهدها العالم العربي، وذهب في تحذيره إلى خطورة ذلك مستشهداً بمشهد قراءة القرآن الكريم في حفل تأبين محمد الماغوط، كونه كان من رموز العلمانيين العرب، وكذلك وجه محذراً من خطورة وصول عبد الله غول إلى قصر يلدز مع امرأته المحجبة!! وفي إشارات مماثلة تأكد لدى الباحث العلماني الشهير أن الخطر الإسلامي قادم وأن علينا أن نوقف هذا المد الرجعي الهائج الذي يهدم ما بناه دعاة التقدمية العربية!!

قلت لهم: من المؤلم أن العلمانيين العرب الذين يفترض أنهم دائماً مع الخيار الديمقراطي، يقفون اليوم مباشرة مع العسكر ضد الخيار الديمقراطي للناس، ويطالبون بصحوة ثورية للعسكر في أنقرة لوقف تسلل ( المرأة المحجبة) إلى قصر يلدز، وباستغاثة حزينة يذكرك مشهد الخوف من وصول المحجبة إلى القصر الرئاسي بالسلوك الهمشري الذي سلكه النواب الأتراك لمنع السيدة مروة قاوقجي من أداء القسم الدستوري بعد أن انتخبها الشعب التركي وفق أصول اللعبة الديمقراطية وطقوسها!!
هل جاء عبد الله غول بامرأته من المريخ أم استوردها من جزر الواق واق أمن أنها ابنة الأرض التركية نشأت ودرجت وتعلمت على تراب أرض الأناضول التاريخية؟
فهل كان هذا المشهد مناسباً ليباهي به العلمانيون دليلاً على ضمان العلمانية للحريات والمساواة؟؟؟

هذا التناقض الحتمي الذي ترسمه العلمانية العربية في مصر خصوصاً هو من وجهة نظري المكافئ الموضوعي لما قدمه قبل نصف قرن رواد الإسلام السياسي حين افترضوا التناقض الحتمي بين الإسلام والديمقراطية وأطلقوا على الأولى اسم شريعة الله وعلى الثانية اسم شريعة الطاغوت!!

السؤل الآن: لماذا يختصر كثير من قادة الخطاب الإسلامي رسالتهم في شن الحرب على العلمانية، واختصار العالم بين خندقين خندق العلمانية الفاجرة وخندق الفقه الإسلامي؟
والسؤال بنفس القدر لدعاة العلمانية العرب الذين لا يرون أولوية أهم من مواجهة الشارع الإسلامي واتهام الآخرين بالظلامية والانحباس التاريخاني، ويرعبهم مشهد الحجاب الإسلامي بقدر ما يرعبهم الملف النووي الإيراني، والذين أطلقوا على تركيا أمارة تركياستان؟
بالطبع لو نادى داعية مسلم اليوم بالصلح بين الإسلام والعلمانية، -والأمر نفس بالمنسبة حين ينادي مفكر علماني بالصلح بين العلمانية والفقه الإسلامي- فإنه سيواجه بضراوة على أساس أن المنهجين في غاية التناقض وأن أحداً لا يستطيع أن يقبل أحدهما بدون الكفر بالآخر، إن تجربة أردوغان تقول غير ذلك، وهي ماضية لاستخلاص القيم الإسلامية وإحيائها في المجتمع من خلال الأدوات العلمانية نفسها.

## الإسلام أم العلمانية؟

هل يتضمن هذا السؤال من المنطق ما يجعله مفتاحاً للحوار بين أبناء الوطن الواحد؟

إن سؤالاً كهذا يفترض التناقض المسبق بين المنهجين، ولكن كاتب هذه السطور لا يفترض التناقض بين المنهجين، ويرى أن بالإمكان الاتفاق على منطقة وسطى جد كبيرة بين التيارين، تتأسس على قاعدة أنتم أعلم بأمور دنياكم، نعم قد يكون هناك تناقض في التفكير بين الفقيه والعلماني ولكنه ليس بالضرورة تناقضاً بين الإسلام والعلمانية.

في سوريا مئات المفكرين يتبنون مقولة الدين لله والوطن للجميع، وهي مقولة صدح بها بعمامته الحمراء قبل قرن وربع المفكر الكبير الشيخ عبد الرحمن الكواكبي، ولا أذيع سراً إذا قلت اليوم إن الخطاب العلماني يصنف على أنه خطاب كافر على الأقل في المؤسسات الدعوية في الخليج وهي أفكار تلقى رواجاً متفاوتاً في سوريا، وعلينا أن نصارح أنفسنا في هذه النقطة بالذات.

لماذا نرضى لاردوغان موقفه التصالحي مع العلمانية، ونأبى للمفكرين العرب أن يتحدثوا بالمنطق إياه، ولماذا نقوم بتصنيف العلمانية على أنها مشروع رحيل نحو الكفر.

ليس المقصود بالطبع عقد زواج الإسلام على العلمانية، فالمنطقان متباينان ولكنهما ليسا بالضرورة متحاربين، وتحت عباءة العلمانية ينشط مفكرون كثير يعرفون الله ورسوله وكتابه، وربما كانوا أكثر التزاماً بالإسلام وقيمه، وفي ساحة عرفات يمكنك أن تلتقي مئات الآلاف من الحجاج الذين ينتمون إلى أحزاب علمانية، وربما من المؤسسين لها والمدافعين عن منطلقاتها، فأين هو مكان هؤلاء لدى أعداء العلمانية.

لست علمانياً، وأنا أناضل من أجل إقناع العلمانيين بثراء الفقه الإسلامي، وعلمية المنطق الإسلامي، والتركيز على هوية البلد الإسلامية ومركزيتها عاصمة للروح والإيمان في الأرض، وأهاجم بالتالي المنطق العلماني المتطرف الذي يرى في الحجاب على سبيل المثال قضية تهز العلمانية، وفق ما اختارته صحيفة Syria-times عنوان غلاف: to veil or not to veil ولكنني مع ذلك أشعر بالمرارة من الحروب التي يشنها بعض الأصدقاء على العلمانية على أنها مشروع إلحادي كافر يزدري الأديان ولا يؤمن بالديان.

لست هنا من أجل أن أشرح العلمانية أو أفسر معانيها أو اشتقاقاتها، ولكنني معني فقط بالدفاع عن أبناء وطني الذين يختارون العلمانية حلاً سياسياً لمشاكل الحياة، وهي بالتالي رسالة مزدوجة فبقدر ما نهتم بإظهار تسامح الإسلام وقبوله للآخر بقدر ما نطالب العلمانيين أيضاً أن يدركوا أنهم غير مخولين بتحديد شروط المواطنة، وأن إساءات العلمانية من قبل أتباعها ليست أقل من الإساءات التي وجهها جاهلون متطرفون لروح الإسلام المتسامحة، فكما أنه ليس من حق الأصوليين احتكار السماء فإنه ليس من حق العلمانيين احتكار الأرض.

إن الإسلام ليس هنا محض قطعة من الثقافة، إنه هوية الوطن وتاريخه، وملح أرضه، ومن واجب التيار العلماني أن يدرك هذه الحقيقة، وعلينا أن نحقق المواءمة الصحيحة بين القيم الإسلامية والشرط الديمقراطي، وبالتالي أن نناضل لبناء حياة ديمقراطية عادلة في ضياء القيم الإسلامية النبيلة ، التي هي في النهاية أنجح مشوار كفاح خاضه العرب من أجل العدالة والحب والخير.

دار ندوة العلماء
ص.ب 4344 هاتف 2771567
www.drkftaro.com